صفحات من أوراق جدي الصفراء ..

حياتنا ووسائل التواصل الاجتماعي

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 30 أكتوبر 2022

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

Zkhunji@hotmail.com

عدت ذات يوم إلى أوراق جدي الصفراء، أعبث بها، وإذ تقع بين يدي هذه الحكاية،

يروى أن شاه بندر التجار صعد يومًا إلى أعلى قصره يتفرج على المنطقة المحيطة بقصره، فلاحت منه التفاتة، فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الراؤون أجمل منها. فالتفت إلى إحدى جواريه فقال لها: من هذه؟ فقالت: يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز.

فنزل شاه بندر التجار وقد خامره حبها وشغف بها. فاستدعى فيروز، وقال له: "خذ هذا الكتاب وامض به إلى البلد الفلانية وائتني بالجواب ؟"، فأخذ فيروز الكتاب وتوجه إلى منزله فوضع الكتاب تحت رأسه، وجهز أمره وبات ليلته. فلما أصبح ودع أهله وسار طالبًا لحاجة شاه بندر التجار، ولم يعلم بما قد دبره مولاه. وأما شاه بندر التجار فإنه لما توجه فيروز خارجًا قام مسرعًا وتوجه متخفيًا إلى دار فيروز فقرع الباب قرعًا خفيفًا، فقالت امرأة فيروز: من بالباب ؟

قال: أنا شاه بندر التجار سيد زوجك. ففتحت له فدخل وجلس فقالت له: أرى مولانا اليوم عندنا.

فقال: زائر. فقالت: أعوذ باللّه من هذه الزيارة وما أظن فيها خيرًا.

فقال لها: ويحك إنني سيد زوجك وما أظنك عرفتني.

فقالت: بل عرفتك يا مولاي ولقد علمت أنك شاه بندر التجار، ولكن سبقك الأوائل في قولهم:

سأترك ماءكم من غير ورد

وذاك لكثرة الوراد فيه،

إذا سقط الذباب على طعام

رفعت يدي ونفسي تشتهيه،

وتجتنب الأسود ورود ماء

إذا كان الكلاب ولغن فيه،

ويرتجع الكريم خميص بطن

ولا يرضى مساهمة السفيه،

ثم واصلت قولها، فقالت: وما أحسن يا مولاي قول الشاعر:

قل للذي شفه الغرام بنا وصاحب الغدر غير مصحوب،

واللّه لا قال قائل أبدًا قد أكل الليث فضلة الذيب.

ثم قالت: أيها الشاه بندر تأتي إلى موضع شرب كلبك تشرب منه ؟

فاستحيا شاه بندر التجار من كلامها وخرج وتركها، ولكنه من شدة الخجل والحرج نسي نعله في الدار.

هذا ما كان من الشاه بندر، وأما ما كان من فيروز فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب فلم يجده معه في رأسه. فتذكر أنه نسيه تحت فراشه، فرجع إلى داره فوافق وصوله عقب خروج الشاه بندر من داره، فوجد نعل الشاه بندر في الدار، فطاش عقله وعلم أن الشاه بندر لم يرسله في هذه السفرة إلا لأمر يفعله، فسكت ولم يبد كلامًا وأخذ الكتاب وسار إلى حاجة الشاه بندر فقضاها ثم عاد إليه فأنعم عليه ببضع دراهم، فمضى فيروز إلى السوق واشترى ما يليق بالنساء، وهيأ هدية حسنة، وأتى إلى زوجته فسلم عليها، فقال لها: قومي إلى زيارة بيت أبيك، قالت: وما ذاك ؟

قال: إن الشاه بندر أنعم علينا وأريد أن تظهري لأهلك ذلك.

قالت: حبًا وكرامة.

ثم قامت من ساعتها وتوجهت إلى بيت أبيها ففرحوا بها وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها شهرًا، فلم يذكرها زوجها ولا ألم بها. فأتى إليه أخوها وقال له: يا فيروز إما أن تخبرنا بسبب غضبك وإما أن تحاكمنا إلى القاضي.

فقال: إن شئتم الحكم فافعلوا فما تركت لها عليّ حقًا.

فطلبوه إلى الحكم، فأتى معهم وكان الشاه بندر إذ ذاك جالسًا إلى جانب القاضي، فقال أخو الصبية: أيد اللّه مولانا القاضي، إني أجرت هذا الغلام بستانًا سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة، وأشجار مثمرة فأكل ثمره، وهدم حيطانه وأخرب بئره.

فألتفت القاضي إلى فيروز وقال له: ما تقول يا غلام ؟

فقال فيروز: أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن مما كان.

فقال القاضي: هل سلم إليك البستان كما كان ؟ قال: نعم ولكن أريد منه السبب لرده.

قال القاضي: ما قولك ؟

قال: واللّه يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيه وإنما جئت يومًا من الأيام فوجدت فيه أثر الأسد فخفت أن يغتالني، فحرمت دخول البستان خوفًا من الأسد.

وكان الشاه بندر متكئًا، فاستوى جالسًا فقال: يا فيروز أرجع إلى بستانك آمنًا مطمئنًا فواللّه إن الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثرًا ولا ألتمس منه ورقًا ولا ثمرًا ولا شيئًا ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة وخرج من غير بأس، وواللّه ما رأى الأسد مثل بستانك ولا أشد احترازًا من حيطانه على شجره.

تواصل الحكاية سرد تفاصيلها، وتقول إن فيروز رجع إلى داره ورد زوجته، ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك.

ويقول جدي، وهكذا تنتهي الحكاية من غير أن يعرف أحد من الموجودين تفاصيل الحكاية ولا ما جرى فيها، ويقول جدي تعليقًا على هذه الحكاية ما أجمل كتمان سر أهلك فلا يعلم الناس عنه فيعيبوك ما بقي من العمر، حتى لو لم تكن أنت المخطئ فالناس سيقولون لا بد أنه بفعله كان سببًا، فاحفظوا أسرار بيوتكم، وأسعدوا بحياتكم، وأنفسكم، وأهلكم، وأموالكم.

أما اليوم، وبدخول وسائل التواصل الاجتماعي فإنه لم يعد لحياتنا سرية، ولم تعد زوايا حياتنا خافية عن الأنظار، فكل ما نقوم به مكشوف، وكل أسرارنا مفضوحة، وكل ما نفعل وما نأكل وكيف نعيش يمكن أن يراها أي إنسان، مهما كان هذا الإنسان حضيضًا.

فحكاية الممثل (جوني ديب وطليقته) مثلاً انتشرت كالنار في الهشيم في كل أرجاء الأرض، وعرفها القاصي والداني، بسبب أنها نشرت في وسائل التواصل الاجتماعي، وعرفنا ما فعله هو وما فعلته هي في كل لحظة وثانية من حياتهما، أليس كل ما نشر كان تفاهة ؟ ولنا أن نسأل أنفسنا لماذا تنشر مثل هذه التفاهات في وسائل التواصل، إلا إننا نعرف أن مثل هؤلاء الشعوب لا يعيرون مسائل الكرامة وحفظ الأسرار والحياة الأسرية أي أهمية، ولكن للأسف – في المقابل – نجد إن مثل هذه الوقاحات والترهات بدأت تنتشر في الكثير من الأوساط الاجتماعية لمجتمعاتنا العربية، فأصبحنا نسمع كل يوم أن الزوج الفلاني أختلف مع زوجته فلانة فتشاجرا، فقامت الزوجة بنشر كل ما لا يليق وكل حياتهما على وسائل التواصل الاجتماعي، بهدف كسب حب المجتمع، ورضا الجميع.

وفي يوم آخر تختلف الممثلة الفلانية مع المطربة الفلانية، عندئذ يمكننا أن نسمع ونشاهد كل فضائح الدنيا وكل القبح على صفحات وسائل التواصل الاجتماعي، ليسمع القاصي والداني كل ما يجرى وجرى في الماضي والحاضر وربما حتى في المستقبل.

وربما الأقبح من كل ذلك أن الكثير من القراء والمشاهدين يدخل لحساب هذا وذلك، ويعلق على الأحداث، لينقسم المجتمع إلى أقسام، مجموعة من الناس تشجع هذا والمجموعة الأخرى تشجع الأخرى، وتستمر الأحداث، وتصبح الأمور وكأننا في أسواق المزاد العلني، هذا يعطي سعرًا والآخر يرفع السعر والثالث يرفع على السابقين حتى تصل الأمور إلى مرحلة اللاعودة، حينئذ تنفجر الأمور وتتطاير ما تبقى من ورقة التوت، لتصبح الوقاحة والفضائح هي مقصد الجميع، ليتحول ذلك الخصام الذي كان من المفترض أن يكون بسيطًا إلى فُجر وعهر ووقاحة.

أيها السادة، إن الهدف والفكرة الأساسية لوسائل التواصل هي تواصل واتصال وتقارب في ظل الظروف التي لا يستطيع الإنسان أن يتواصل فيها مع الآخر إلا من خلال هذه الوسيلة، كأن تتصل بأحد أخوتك في دولة أخرى أو تتواصل مع أصدقاءك في أوطان بعيدة، أو أن يتواصل الابن أو البنت بوالديهم أثناء غربتهم في خارج البلاد من أجل الدراسة. ويمكن الملاحظة أن وسائل التواصل كانت مفيدة جدًا أثناء الجائحة وخاصة مع التباعد الاجتماعي، فكانت المكالمات بالفيديو تقوم – نوعًا ما – بمثل هذه الخدمة، ولكن أن تتحول هذه الوسائل إلى قباحة فإن هذا الأمر غير مرغوب وخاصة في مجتمعاتنا العربية الإسلامية التي تبنى بصورة أساسية على

القيم والأخلاقيات والمبادئ، حتى إنه منهي علينا الفجور في الخصومة والعنف والابتذال في العلاقات الاجتماعية وذلك من خلال الكثير من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة والشواهد والتاريخ الإسلامي يشهد بذلك.

وبالعودة إلى قصة فيروز والشاه بندر التجار، نجد إن فيروز لم يفُجر في الخصومة، وإنما بكل هدوء فكر واتخذ القرار وعندما اكتشف أنه قد أخطأ في اتخاذ القرار تراجع، وعلى الرغم من ذلك فلم يفضح ويتحدث في الأسواق والحوانيت والأماكن ليشفي غليله من شاه بندر التجار أو من زوجته ويتهمها بالخيانة وما إلى ذلك من أقبح الأوصاف، وإنما كتم كل هذا، وحتى عندما عُرضت الشكوى على القاضي – ويمكن أن نلاحظ – أنه لم يفضح ويصرخ ويطالب بحقه، وإنما تحدث بطريقة ذكية وهادئة من أجل أن يصل إلى الحقيقة التي فهمها الشاه بندر نفسه، وقد يتساءل أحدنا لماذا المواربة أمام القاضي، ويمكننا أن نقول: وهل نعتقد أن القاعة كانت خالية من الرجال والنساء الذين جاءوا ليعرضوا قضاياهم على القاضي ؟ كل هؤلاء يمكن أن يتحول إلى وسيلة تواصل اجتماعي لتبث القضية في المجتمع، وكلها لحظات حتى يتحدث العامة عن هذه القضية وعن فيروز وزوجته والشاه بندر وكل ذلك، وكل وسيلة وإنسان ينقلها بطريقته الخاصة.

عندئذ ستتحول القصة البسيطة إلى قصص وحكايات.